التمثلات المعرفية والأنساق الثقافية في النص الروائي الجزائري
ناتج تعالق الفهم والتواصل والممارسات الثقافية

أ. معاشو بووشمة
جامعة وهران–السانيا–

مدخل:

الرواية صعيد زلق ، يفترش المعرفي ويتأثث بالتاريخي والاجتماعي والجمالي. وخطاب أدبي دال وعاكس للمعارف والممارسات الثقافية ، وهو مادة ثقافية تبلور التصورات والممارسات السائدة فتحولها إلى رموز وإحالات تحيل على انساق ثقافية تتحرك في المجال الثقافي لعصر النص.

فالمجتمع ينتج ثقافة ويبدع رموزا انطلاقا من وجود علاقات وثيقة بين الصور الذهنية والممارسات المختلفة التي تسجلها الذاكرة بوصفها أسلوبا من أساليب التعبير عن الهوية ونقل المعرفة والثقافة،وانساقا مهيمنة تسهم في تحريك الذائقة وتطعيم الإبداع –الرواية في موضوعنا هذا–.

السؤال الذي يطرح هو : كيف تتمكن الأنساق الثقافية من استثمار ذلك التنوع والتشابك فتبلوره (نصا) ؟ أو كيف تجعل النص الروائي مفهوما ومتمثلا وكاشفا ثم ناقلا(تواصل–تداول) للثقافة التي أنتجته وأثرت مخياله و لغته؟.

للإجابة عن الإشكالية لا بد من بلورة خطوات منهجية ،تفرضها منهجية البحث العلمي الدقيق،إذ تتفرع الإشكالية إلى أسئلة جزئية ،تشكل الإجابة عليها ثمرة البحث ونتائجه.والنص الروائي الجزائري في بنيته ينفرد بتمثلاته المعرفية،وأنساقه الثقافية المضمرة ،ويشكل أرضية مشتركة تمنحه الخصوصية والتفرد ،الناتجة حتما عن تفاعل مستويات من الفهم والتواصل والتداول ،والتي تتكامل وتلتقي في آليات موحدة لإنتاج النص والمعنى أو الموضوع الجمالي في النص الروائي.

من مبدأ يعتبر التواصل عملية تبنى أساسا على تبادل الرموز المختلفة واللغوية منها على وجه الخصوص،من أجل تحقيق التفاهم والتفاعل بين الأشخاص. شريطة أن يتحقق الاشتراك بحيث يكون "...سلوك يهدف إلى التأثير في الغير، في إطار قواعد اجتماعية من طرف وضعية الشريك وخصوصياته، فهو يكتسي تعاقدا ضمنيا، وتشاركا بين الفاعلين الأساسيين..."[1] ، ولا يتحقق الاشتراك إلا من أجل تحقيق التفاعل الذي يعتبر "...نوع من التفاعل الهادف إلى خلق تفاهم بين مجموعة الذوات داخل مجال عمومي..."[2]، وهما ركيزتا العملية التواصلية ، بطريقة تبادلية وتوافقية بين طرفين أو متحدثين، ويحدث الخلل في حال الإخلال بين الأطراف في مجال الفهم والتبادل والاشتراك، ويكون منشأه الأداة الأولى وهي اللغة أو مجموعة الرموز التي تتطلب تحديدا مشتركا،حيث أصبح تحديد هذا التشابك والعلاقات هو موضوع المعرفة والنقد[3]، من حيث أن ما لا يتفق على معناه وتشترك فيه لا يمكن أن يحقق التواصل .

من هذا المنطلق فأن الأرضية المؤسسة للفهم والتبادل هي الثقافة المشتركة ،التي تتقاسمها الذوات المعرفية الباث أو الكاتب والمتلقي ،ويتشاركان في أنساقها باعتبار النص ظاهرة ثقافية.[4]

، أما النص الأدبي فهو بنية مادية وبمكونات بنيوية أولا ، ومن جهة أخرى هو موضوع جمالي يتجسد في المعنى ،الذي يسعى العمل الأدبي إلى تشكيله عبر القارئ كما أرسته نظريات القراءة، إلا أن تحقق الاشتراك يتم حين تقوم الذات القارئة بإنتاج المعنى او الموضوع الجمالي ،وتظل البنية المادية للنص الشرط الأساسي والضامن لعدم انفلات الفهم والتخييل.

يحمل الخطاب الروائي في تجلياته النصية طابعا واقعيا وتوثيقيا ،يشتغل فيه التخييل في نسق سردي منسجم يساهم في بناء دلالات خاصة وتمرير دلالات وقيم محددة.لإعادة بناء الوقائع واستيعاب التمثلات "...ينتج عن الذهن...مشروطا بالخضوع لآليات الإدراك ..."[5] فهو نص أدبي–تاريخي مشترك ذو طابع حكائي يحمل مقومات السيرة الذاتية والتراجم الشخصية ،يعكس نماذج من الرحلة ،يشتمل على العجائبي والأسطوري والرمزي ،يستند على التاريخ والوصف والمكان والزمان ،وكلها تعتبر مقومات السردية في مختلف تجلياتها. وهو ما يعكس"... انفتاح السردي على حقول معرفية قريبة تطعمها وتمكن الدارس من استغلال نتائج الوصف البنيوي في بناء انساق دلالية خاصة..."[6]،الآمر الذي يعين على فهم التنوع في الخطابات المنتجة ،والتي في غالب الأحوال لم تصنف على أنها ذات طابع سردي وظلت حبيسة فهم تاريخي قاصر ،أبعدها عن حقل الدراسات الأدبية.

ومن أجل استكشاف فعالية عملية التواصل في النص الأدبي ،راح الناقد ينبش ويحفر في مختلف جوانب البحوث حول التواصل وخاصة تلك المتعلقة بالوظيفة الشعرية التي أطلقها البحث حول مفهوم الشعرية والرسالة الأدبية وكواد (جاكبسون) الشفرات النصية ،وتطور البحث في هذا المجال مواكبا للتطورات الحاصلة في مختلف العلوم ،وخاصة علوم الاتصال بعد الانفجار التقني الكبير الخاص بالوسائط وتأثير علوم التواصل وفلسفة الاتصال"..وسائل الاتصال إذا فهمناها باعتبارها إشكال وكواد الفعل الرمزي،فهي التي أفضت إلى بعث علوم قديمة مثلا البلاغة والتأويل بما لها من اهتمام بالمرموزات..."[7]

ونظرا لتشابك الاختصاصات وتداخلها لابد من النظر إلى العملية التواصلية خاصة في مجال النص الأدبي والنقد ،من الضروري مدارستها وكشف خباياها بالطرق التي تسمح بالإفادة من الجديد الحاصل حولها، لعل من القضايا النقدية التي نمت وواكبت تطور تلك العلوم الاتصالية هو الدراسات الثقافية والنقد الثقافي ونقد الأنساق الذي يهتم بتلك التطورات وتأثيراتها،وهذا الذي يظل بعيدا عن النقد الأدبي والروائي خاصة ،ويشكل ضرورة في التأويلية والفهم النصي[8]، كون المستحدث يصنع المعنى والذائقة ويوجه القراءة والتأويل.من اجل ذلك نقترح خطوات عملية لفهم عملية التواصل وتأثيرها في النص وإسهامها في القراءات النقدية.

*** الاستعانة بالكشوفات العلمية في مجال الدراسات الثقافية[9]:**

شهدت النظريات النظريات النقدية المعصرة مثل الأسلوبية والنصوصية والألسنية والبنيوية والسيميائية وما بعد البنيوية. التي تعاملت مع النص بما هو نص داخلي منعزل فأعلنت موت المؤلف وموت الإنسان .، فتولدت الحاجة إلى التوجه نحو استعادة زمام البحث حول النص من حيث ما يكشف عنه من بنيات وانساق تعكس الأنظمة الثقافية والسياقات المختلفة المؤثرة فيه، وتراقب إشكاله التعبيرية ومدى انعكاس تمثلاته الإيديولوجية والمعرفية والثقافية ،ومدى انتشاره وتأثيره.وبالتوازي مع تطور الدراسات الإنسانية المختلفة وتطور الأبحاث حول النظرية الثقافية والأنثروبولوجيا نشأت الدراسات الثقافية كإفراز معرفي يجمع مختلف تلك التخصصات ويستفيد منها.

من منطلق طموحات النقد الأدبي في إدراكه لأهمية الإصغاء للأنساق الضمنية (المهيمنة والمهمشة معا)،إضافة إلى اهتمامه بمختلف النظريات النقدية وخاصة التحليل النفسي والتأويلية والتداولية والاستفادة منها جميعا،ومن حيث تظافر اليات انتاج النصوص ومؤثراتها المختلفة من منظورات مختلفة ارتبطت بمفاهيم واليات النقد الثقافي والدراسات الثقافية كالتاريخانية والنسوية والجنوسة وما بعد الكولنيالية والادب الرقمي والاتصالية وغيرها

و محاولة التعامل مع الثقافة في ضوء الممارسات التي أنتجتها، وقد وضعت أنماط إنتاجها وأنساقها ومسلماتها من معتقدات وتقاليد ورموز موضع البحث ، متوخية الوصول إلى سر ذلك التفاعل الخلاق بين عناصر الثقافة، والعناصر الجمالية المجسدة في القنوات التواصلية على شكل صور –أدبية– قصد تمريرها وحفرها في الذاكرة على شكل مادة روائية وسردية متفاعلة .

*** استثمار المنهج التداولي والبلاغة الجديدة:**

البحث في مجال لسانيات الخطاب والمنهج التداولي باعتباره يهتم بأفعال الكلام وينهض على نظام **شكلي دلالي إنجازي تأثيري**،ويهتم بدراسة اللغة بوصفها ظاهرة **تواصلية اجتماعية خطابية حجاجية** ،والتداولية تؤدي إلى تقوية العلاقة بين اللسانيات والثقافة ،ومعجم التواصل مفعم بدلالات المثاقفة والحوار والإبلاغ والإخبار. في مجال التداولية التي بلورت مباحث التواصل وطورتها "عوائق التواصل"،الناتج بالأساس عن سوء الفهم وهو يقوم على سوء تمثل الحقائق والمدركات "...بلوغ الحقيقة سيصبح الرهان التداولي الأساس ...ليتجه فيما بعد نحو إيتيقا تواصلية منطوقها:إن فهما أفضل يؤدي بالضرورة إلى تواصل أفضل..." [10] والحاصل أن الإرباك في الفهم هو الذي يخرج التواصل من الموافقة إلى المخالفة، فينتج عنه إرباكا لعملية التواصل التي تربك عملية التفاعل والتشارك لأن "...أفعال اللغة هي أفعال الإنسان.."[11] وهي التي تشكل دوافعه والغلط الناشئ في هذا المستوى ينسحب على الآخر.

*** استنطاق الثراء الثقافي والرصيد المعرفي للعلامة اللغوية:**

تتبدل الأنظمة اللغوية بتبدل الطابع الثقافي.وعبر سبر أغوار الأنساق المضمرة المكونة للعلامة اللسانية بحمولتها ورصيدها الثقافي ،التي انفتحت على عدة علوم كالانسانيات. يعتبر الخطاب الروائي

خطاب يرتكز على بعد ثقافي خاص وينطلق من تركيب لساني مختلف .ينتج فهما خاصا للمجتمع،وأسلوبا خاصا في الفهم والتداول والتأثير. من حيث أن"...مطابقة الوحدة اللغوية للوحدة الثقافية (شرط ان يتضمن مفهوم الثقافة مفهوم المواضعات الاجتماعية.."[12]

*** الاحتكام للتأويلية التواصلية:**

العمليات التي يمكن إن تمارس على النصوص مثل الفهم والتفسير والشرح والتأويل والترجمة والتطبيق هي فعاليات تأويلية تستند على تأويل العلاقات التي تحدث بين النصوص فيما بينها وفيما بينها وبين الثقافة في تفاعلاتها المختلفة مع الواقع وداخل النصوص مما يساعد على كشف بعض المعطيات العملية في فهم النصوص وتجريدها لكشف أنساقها الضمنية"..فموضوع العلاقة أصبح اليوم موضوع المعرفة ذاتها أنها الطفرة التي تعرفها مختلف العلوم والنظريات في الوقت الراهن..."[13]. دون إغفال أهمية التأويل على المستوى التواصلي المستخدم في إنتاج المعرفي وتوزيعه ونشره وهو ما ركز عليه إيكو في قضية السياق حين رفض مقولة المرجعية الواقعية وعوضها بالمرجعية الثقافية ..لذلك فان كل فعل تتميمي ينجزه القارئ،لا ينجزه إلا في حدود وجوده الثقافي.."[14]. والتأويل وكل ما يتعلق بالظروف العامة السياقات والمقامات والظروف العامة المختلفة منها المركز والسلطة والاديولوجيات. ومدى فاعلية عملية التأويل التواصلي في عملية التواصل وسياسات الإعلام والنشر وصناعة الصور النمطية والتركيز على مختلف عملياتها.

***مقاربة التواصل و التناصية أو الترابطية:**

تفرض حالات التشظي والانتشار المعرفي ولادة أشكال وقوالب مغايرة للنصوص ،فالقولبة والتعليب من خصوصيات المرحلة التي تشهد ظواهر تواصلية مطردة ،ومن امثلة ذلك ميلاد النص المترابط حسب سعيد يقطين والمتشعب حسب محمد اسليم :"...التشظي والتفكيك والترابطات التي لا تحتكم لأي سياق سوى السياقات التي تفرزها والإحالات المتتالية ذاتها..."[15]. ومن منطلق مقاربة النظرية التّناصيّة للنصوص في بدايتها وتركيزها على تداخل النصوص ومحاولة الوصول إلى النص الأصلي، والحدود الفاصلة بين النصوص، ،ولكن ظهور نظريات التواصل والدراسات الثقافية التي خلقت التفكير حول الثقافات التناصية أو حوار النصوص ثقافيا في تقاسم للارضية المشتركة أو السياقات الثقافيّة. الانفتاح على بنيات أوسع cultural intertextuality، لتبدأ دورة جديدة في تفكيك مفاهيم سائدة متبلورة في صورة معالجات تتوسل السياقات الثقافيّة، وتكشف عن النفوذ السياسي والهيمنة ودور الاستعمار، وتمثيلات الهوية، محققة بذلك علاقات واسعة بين الأدبي وغير الأدبي، ولاسيما بعد ظهور تيارات ما بعد الاستعمار والنسوية والتاريخانية الجديدة والنقد الثقافي[16]. ويقدم فينيست النقد الثقافي من جانب أخر " مفهوما متعدد الأوجه للنقد الأدبي يقوم على الالتزام بالثقافة باعتبارها الأرضية لتحقيق القدر الأقصى من الفهم ولتقدير الفروق..".[17]

ومهما قيل حول تاريخية الفكر وجهازها المفاهيمي يبقى النقد الثقافي الغربي "...يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد والتفكير الفلسفي وتحليل الوسائط....وبمقدوره أن يفسر نظريات ومجالات علم

العلامات ونظريات التحليل النفسي...ودراسات الاتصال وبحث في وسائل الإعلام والوسائل الأخرى التي تميز المجتمع والثقافة المعاصرة..."[18] حيث يظل نشاطا عابرا للتخصصات يمارس مهام متبادلة ومتغيرة ومترابطة في آن.

خلاصة

موضوع التواصل مرشح بأن يناقش بأشكال مختلفة كونه مستمر في فرض هيمنته على النص والإنسان ولأن الثقافة صارت التواصل في حد ذاته ،ولكن لا غرو أن نستخرج منطلقات للبحث والاتفاق حول خطوات تمكننا من فهم دور العملية التواصلية في عملية النقد ،والبحث عن أفق التلاقي بين التواصل والنقد والإبداع ،إذ يستلزم الفهم(في نظرية الفهم) إدراك التمثلات والتفاعلات في العملية الإدراكية،والتي لا تنفك تتبدل إثر فعل التواصل ،كون انفتاح الأنساق وانغلاقها خاضع لمجريات عمليات التواصل وما يصل إلى ذهن الإنسان ويؤثر فيه ، ولان التواصل:

– يكشف عن العلاقات بين النص والثقافة التي أنتجته. ويكشف عن العلاقات بين النص والقراءات المختلفة له.

– التواصل يشكل الشفرات الداخلية للنص والتي تدخل في عملية الفهم حيث تنتج الشفرات من المشترك الثقافي الذي ينتقل عبر التواصل.

– يعود بناء وظيفة التواصل إلى بنية العملية ذاتها وأنساقها الشكلية وتبدلاتها ،التي تؤثر بشكل وبآخر على عملية الفهم والإدراك والإبداع بشكل عام.

الهوامش و الإحالات:

[1] – التواصل نظريات ومقاربات: مجموعة باحثين، تر :عز الدين الخطابي وزهور حوتي ، منشورات عالم التربية، ط1/المغرب 2007،ص–15.

[2] – نفسه،ص–15.

[3] – عندما نتواصل نغير ،عبد السلام عشير .افريقيا الشرق–الدار البيضاء،المغرب 2012 .ص–9.

[4] – لسانيات الخطاب وانساق الثقافة.عبد الفتاح احمد يوسف. منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ط.1.بيروت لبنان 2010.ص–62.

[5] – المعنى وفرضيات الانتاج مقاربة سيميائية في روايات نجيب محفوظ) عبد اللطيف محفوظ. منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ط.1.بيروت لبنان 2008، ص–24.

[6] – التخييل وبناء الانساق الدلالية نحو مقاربة تداولية. سعيد جبار .دار رؤية .القاهرة مصر.2003 ،ص– 9.

[7] – الثقافة في عصر العوالم الثلاث.مايكل دينينغ.. تر:أسامة الغزولي. المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب.الكويت يونيو 2013.ص–114.

[8] – وهج المعاني سيميائيات الانساق الثقافية.سعيد بنكراد المركز الثقافي العربي.الدار البيضاء –المغرب 2013.ص–118.

[9] – نشأت الدراسات الثقافية التي نشير إليها عن أعمال (ويليامز و ريتشارد هوغارت)، وأبرزها للعامة لاحقاً مركز الدراسات الثقافية المعاصرة» في جامعة (برمنجهام) بإنجلترا. ولقد أصبح هذا المركز– وخصوصاً تحت إدارة كلٍ من (ستيوارت هول وريتشارد جونسون).ينظر النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية .ارثرايزابرجر .تر: وفاء ابراهيم ورمضان بسطاويسي.المجلس الاعلى للثقافة .القاهرة مصر.ص–31.

[10] – فلسفة التواصل :جان مارك فيري ،ترجمة عمر مهيبل.المركز الثقافي العربي1427،ص–78.

[11] – نفسه ،ص–13.

[12] – الثقافة والإمبريالية، إدوارد سعيد، نقله إلى العربية وقدم له كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م

[13] – آليات انتاج النص الروائي .عبد اللطيف محفوظ. منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ط.1.بيروت لبنان 2008.ص–170

[14] – من فلسفات التاويل الى نظريات القراءة .دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة .عبد الكريم شرفي. منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ط.1.بيروت لبنان 2007 ص–1132.

[15] –

[16] – آليات إنتاج النص الروائي ،مرجع سابق ، ص– 127.

[17] – النقد الأدبي الأمريكي.فنسنت .ب. ليتش .ترؤ: محمد يحيى .مراجعة ماهر شفيق .المجلس الاعلامي للثقافة.القاهرة –مصر 2000.ص–108

[18] – النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذَّامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000م. ص–31.